

الرقابية .. عقيدة ودولة

للككتور عبد الحميد البطريق

استاذ كرسي التاريخ الحديث
و رئيس قسم التاريخ والجغرافيا

في أوائل القرن الثامن عشر وقع في جزيرة العرب حادث خطير ، غير تاريخها السياسى ، وقلب نظامها الاجتماعى ، وأثر كثيراً في نظامها الاقتصادى وخارج بها عن عزلتها الطويلة إلى مجرى السياسة العالمية ، ذلك الحادث هو ظهور مصلح كبير يدعو إلى مبادئ جديدة غايتها الإصلاح الدينى ، وهدفها إرجاع الإسلام إلى عهد البساطة وتحكيم القرآن ، والتشدد كل التشدد في محاربة ما تعتقده من البدع والقضاء على الآفات التى ترتكب باسم الدين .

ففى سنة ١١١٦هـ (١٧٠٣م) ولد للشيخ عبد الوهاب بن سليمان التيمى قاضى (العيينه) بوادى حنيفه بنجد ولداً أسماه محمداً ، وكان بيت هذا القاضى ملتقى القاصدين من طلاب العلم وبعض علماء الدين يجتمعون فيه للبحث والمجادلة ، ومضون الوقت فى جدال فقهى ، أو نقاش دينى ، وكان الطفل وقد شب وأصبح صديقاً ، يحلوه أن يراقب مجلس أبيه عن كثب فينصت لأحاديث القوم ومجادلاتهم ، بفضل هذا على الاجتماع بأقرانه من الصبية ، الذين اعتزلهم لى يستمع لى ما كان يثيره أبوه من جدال وبحوث . فنشأ حاد الفهم ، وقاد الذهن ، سريع الحفظ ، فصيح اللفظ ، واسع الثقافة بالنسبة لأتراه ومعاصريه ، حفظ القرآن قبل بلوغه العشر ، ونما جسمه وذنه نمواً سريعاً ، فزوجه أبوه فى سن مبكرة عندما كان فى الثالثة عشرة ، وهى بالعمره

والحج فآدى المذاسك فى مكة، ثم ذهب لزيارة قبر الرسول فى المدينة حيث أقام شهرين كاملين . وقد رأى الفقى أثناء رحلته بالحجاز من المنكرات والبدع التى ترتكب باسم الدين ما أثار حفيظته ، وشغل ذهنه وتفكيره .

عاد الشاب بعد ذلك إلى « حريملة » حيث كان أبوه قد انتقل قاضياً فيها ، وهناك فى حريملة قرأ الفقه على أبيه . على مذهب الإمام ابن حنبل ، ولقنه أبوه شتاً من العلوم الفقهية والدينية التى يحسنها فكان محمد مبرزاً فى حل ما يعرض فى مجلس أبيه من المشكلات الفقهية ، حتى كان أبوه يقول عنه « قد أفدت من ولدى محمد فوائد شتى فى الأحكام » (١) .

رحل الشاب بعد ذلك طلباً للزيد من العلم فزار الحجاز والاحساء والبصرة ، وهناك فى البصرة أطال الإقامة فقد راق له أن يدرس اللغة والحديث على أحد علمائها الأفاضل الشيخ محمد المجموعى ، وكانت البصرة مرتعاً خصيباً لغلاة الشيعة ، الذين كانوا أكثر الفرق الإسلامية تعظيماً للأولياء . فمال الشاب ما رأى وما سمع من البدع الكثيرة التى ألصقوها بالدين ، وتوارثها الأبناء عن الآباء . فلم يستطع السكوت ، وبدأ يجهر بالنقد ويحمل على أهل البصرة حملة شديدة أثارهم عليه ، فأخذوا فى أول الأمر يجادلونه ويناقشونه فبذصر عليهم حتى يسكتهم ، ولكنه كان عنيفاً فى حملاته عليهم ، قاسياً عليهم فى زجره كل من يذكر اسم أحد الأولياء والصالحين محاطاً بهالة من التعظيم والتقدیس ، شديد المراس فى مجادلاته معهم ، فأثارهم عليه حتى أخرجوه من ديارهم ، ففكر راجعاً إلى حريملة بنجد .

أقام فى حريملة فى كنف أبيه . يدعو إلى التوحيد وينادى بإبطال الدعوة لغير الله ، وأخلص لدعوته كل الإخلاص مكرساً لها قلبه ولسانه وقلبه ، وبدأ

(١) حسين بن غنام . كتاب روضة الأفكار والافهام لمترادى حال الامام وتعداد فزوات الاسلام ص ٢٠ .

يكتب مؤلفه المشهور (التوحيد الذى هو حق الله على العبيد ، وقد بنى العالم الشاب كتابه على حديث صحيح للنبي صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » ، وإلى قوله فى حديث آخر « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله » ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، باصفية عمه الرسول لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليمانى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً .

استغل الشاب هذين الحديثين ليعلن أن التوسل إلى الله بالنبي شرك ، وأنه لا وساطة لنبي أو مخلوق بين الله وعباده . وكان لهذه الدعوة الجريئة صدى قوى فى إقليم العارض . فى حريملة والعينة والدرعية والرياض ، وانقسم الناس إزاء الدعوة الجديدة فريقين ، فريق شايع آراءه وآمن بدعوته ، وعاهده على نصرته ، وفريق أنكر عليه دعوته وهو الفريق الأغلب ، اشتد بهم الحنق عليه فقاموا يريدون الفتك به ، ففر هارباً إلى العينة مسقط رأسه .

هناك فى العينة تبدأ دعوة الشيخ فى الذبوع والانتشار ، فقد كان نصيرها الأول أمير العينة (عثمان بن معمر) الذى عاهد الشيخ على أن يكون سيفه المسلول ووضع جنوده رهن إشارته ، فاتفقا على العمل الذى أضرم نيران الثورة فى ربوع نجد . إذ طلب إليه الشيخ أن يهدم القباب المقامة على قبور الصحابة ويقطع الأشجار التى يتبرك بها الناس ، فامثل ابن معمر للأمر وخرج فى جمع من أصحابه وأتباعه يتقدمهم الشيخ يحملون المعاول فهدموا القباب والقبور والمساجد المقامة فى الجبيلة على قبور الصحابة وقطعوا الأشجار التى يتبرك بها الناس .

ويحدثنا المؤرخون النجديون الذين عاصروه ، كتلميذه حسين بن

غنام^(١) ، أن الخرافات والبدع التي انتشرت في بلاد العرب في ذلك الوقت. كانت تحتاج إلى مصلح حازم ، وأن الدين الإسلامي كان في أشد الحاجة إلى حركة إصلاحية تقوم على النصح والسيف معاً ، فقد كان من الصعب اقتلاع ما اعتنقوه وأصبح لاصقاً بالدين كأساس من أسسه ، ويصف ابن غنام بعض هذه المادات فيقول إن المرأة كانت إذا ما عنست تطوف بالذكر من النخل وتلتزمه ، ثم تقول : يا فحل الفحول ، أريد زوجاً قبل الحلول ، وأن الناس إذا مرض لهم مريض وعز شفاؤه ، ذبحوا الذبائح وذكروا أسماء الجن والشياطين عليها ، ولم يذكروا اسم الله ، ثم أخذوا أطايب هذه اللحوم وألقوها في الفلوات زاعمين أن الجن والشياطين يأتون هذه اللحوم فيأكلونها ويتم بذلك رضاعهم على المريض فيبرأ . وكانت عندهم شجرة يسمونها شجرة (الذيب) يعتقدون فيها عقائد مضحكة ويفعلون لديها أفعالا منكرة ، فالمرأة إذا ولدت مولوداً ذكراً جاءت تلك الشجرة وعلقت عليها الخرق. لتدفع عن ولدها الحسد والموت ، كذلك تفعل الأرملة التي تريد زواجا ، والعاقرة التي تريد واداً ، والعانس التي تريد خطيباً . وقد حمل الشيخ محمد بن نفسه على تلك الشجرة المقدسة التي كانت مزاراً للناس ومهبطاً للتمنيات. والنذور ، فأنهال عليها بمعوله حتى هوت إلى الأرض .

وكانوا في الجبيلة يؤمنون قبر زيد بن الخطاب لتحسين حالهم وإجابة دعواتهم فأراد الشيخ التخلص من هذه القبة التي تعلو قبره ، ففاتح في هذا تلميذه أمير العيينة قائلاً : دعنا نهدم هذه القبة التي وضعت على الباطل وضل بها الناس ، فقال دونكمها فهدمها فقال الشيخ : إني أخاف من أهل الجبيلة أن ينصروها ويوقعوا بنا ، ولا أستطيع هدمها إلا وأنت معي . فسار معه عثمان بن معمر في ستمائة جندي من جنوده ، فحاول أهل الجبيلة منعهم.

ولكنهم رأوا أن ابن معمر جاد في حربهم ، فكشفوا عن المقاومة وخلوا بينهم وبينها . فتقدم الجميع نحو القبة ، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يبدأ بهدمها حتى عثمان بن معمر نفسه تهيب الموقف ، عندئذ تقدم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وأعمل فيها معوله فتبعه الناس وتمت تسويتها بالأرض في وقت قصير ، وبات الناس ينتظرون ما عساه يحدث للشيخ محمد من الشر والبلاء .

أما الحادث الذي أثار القوم ، وأقام المعارضة ضده فهو أمره برجم امرأة زانية ثبت زناها بإقرارها وبشهادة أربعة أعيان ، حيث جرى بها إلى الساحة وأمر الشيخ أن تشد عايتها ثيابها وترجم ، وقد بدأ برجمها الأمير عثمان بن معمر ثم تبعه الراجون . سرى الخبر كوميض البرق في البوادي والحضر ، واجتمع أهل الحسا خاصة لأنهم كانوا من أشد العرب استمئاعاً بالإباحية والفجور ومن أكثرهم تمسكاً بالدين ، فكتب أميرهم سليمان آل محمد رئيس بني خالد — الذي كان نفوذه يشمل بلاد العارض نفسها — إلى ابن معمر الذي كان عاملاً له ، يهدد الشيخ المصلح بالقتل إذا كان لا يرجع عن غيه « في تخريب قلوب المسلمين وإفساد دينهم » ، ثم عاد الأمير سليمان فكتب إلى ابن معمر يأمره بقتل محمد بن عبد الوهاب (١) . وأخيراً رأى ابن معمر أن خير طريقة تحفظ عليه منصبه ، وتخلص صاحبه هي أن يرحل الشيخ من العينة .

رأى الشيخ أن يسير إلى الدرعية معقل آل سعود ومقرهم وكان أميرها يومئذ محمد بن سعود ، ونزل على أحد تلاميذه عبد الله بن سويلم العريني (٢) فما سمع أهل الدرعية بوصوله حتى غص بيت عبد الله بن سويلم بأنصار الشيخ ومريديه ، وعلى رأسهم ثنيان بن سعود أخو أمير الدرعية

محمد بن سعود ، وما لبثا أن ألخا على أخيهما الأمير أن يقابل الشيخ فتردد
أولاً ، فلم يجد بداً من أن يعرض دعوة الشيخ وتعاليمه على (موسى بنت
أبي وهطان زوجة أخيهما الأمير ، فقد عهدا فيها الذكاء وأصالة الرأي ،
فما سمعت منهما الأسس التي قامت عليها دعوة الشيخ حتى ارتاحت إليهما
وأقبلت على زوجها الأمير قائلة « إن هذا الرجل قد ساقه الله إليك وهو
غنيمة ، فاغتنم ما خصك الله به » وكان لكلمة هذه الزوجة الصالحة أثر
بالغ في نفس ابن سعود فدعا أخاه (مشاري) وأمره أن يدعو الشيخ لمقابلته ،
فقال مشاري مستعظفاً أخاه « سر إليه برجلك ، وأظهر تعظيمه وتوقيره ،
ليسلم من أذى الناس ، فسار ابن سعود الى بيت عبد الله بن سويلم ورحب
بالشيخ قائلاً « أبشر ببلد خير من بلادك وبالعز والمنعة » فأجابته الشيخ
« وأنا أبشرك بالعز والتمكين إذا عاهدتني على كلمة التوحيد التي دعا إليها
الرسول كلهم » وتلى كلمات الترحيب عهد بين الأمير والشيخ تعهد فيه
ابن سعود أن ينشر بحمد السيف دين التوحيد وأن يجاهد في سبيله ، بكل
ما أوتي من قوة وجاه ، وتعهد الشيخ بأن يبق في الدرعية مرشداً ومعلماً ،
وهكذا تحالفت القوة الروحية والقوة الزمنية ، واستعد صاحب الشوكة
لحماية صاحب الدعوة ، وأباح له أن يحجر بدعوته على أن يضع تحت
تصرفه قوته وجاهه وماله وآله .

كان لهذا العهد دوى هائل في أنحاء الجزيرة العربية ، وتشجع الشيخ
فتوسع في دعوته ، وصرح بكل ما كان يختلج في صدره ، وما كان يجمع
به لسانه فييديه أحياناً ويكتمه أحياناً أخرى . وأصبح مطمئناً على دعوته
وعلى نفسه بعد أن بايع الأمير محمد بن سعود إماماً يتبعه المسلمون وكانت
هذه البيعة في عام ١١٥٨ هـ (١٧٤٥ م ^(١) .

بدأ الناس يقبلون على الدرعية من كل حذب وصوب ، منهم من يريد

(١) ابن بشر . عنوان المجد في تاريخ نجد الجزء الاول ص ١٥ .

بذلك الفسحة والتسليّة ، ومنهم من يريد أن يسمع السر ليزيجه ، ومنهم الشاك الحائر ، ومنهم من يلتمس الهداية والفائدة ، وشرع الشيخ يعرض مبادئه وتعاليمه على هؤلاء وأولئك في حجة داخنة ، ولسان فصيح . فاستجاب له أكثر أهل الدرعية وفريق كبير من الزائرين واستقرت في قلوبهم دعوة التوحيد ، وأشرب حب الشيخ قلوبهم ، فأصبح سموع الكلمة ، نافذ الرأي ، وأضحت الدرعية مدينة التوحيد تنبعث منها المبادئ الجديدة ، حيث أخذ الشيخ يكتب مؤلفاته القيمة ويراسل الرؤساء والكبراء داعياً إليهم لدين التوحيد . أما مجلسه في الدرعية ، فكان مهبط الطلاب ومقصد العلماء ، وكان لأولاده أيضاً مجالس وحلقات للدرس لا تقل عن مجلس أبيهم ، وقد رأى ابن بشر بنفسه هذه الحلقات فوصفها في كتابه قائلا : « قد رأيت لهؤلاء الخمسة مجالس ومحاولا للتدريس في بلد الدرعية ، وعندهم الطلبة الكثيرون من سائر نواحي نجد ، ومن أهل صنعاء وزبير وعمان وغيرها من الأقطار »^(١) .

وكان الشيخ حريصا كل الحرص على أن يبين للناس أنه لم يأت لهم بجديد (إنى لم آت بجهالة ، بل أقولها والله الحمد إن ربي هداى إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ، ولست والله الحمد أدعو إلى مذهب صوفى أو غيره ، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم التى أوصى بها أول أمته وآخرهم)^(٢) .

وكان له ولكل من أبنائه مدرسة قرب بيته يتردد عليها الطلاب صباح مساء يدرسون فيها الحديث والتفسير والفقه والأصول ، وقد سعى الشيخ حتى أجرى الأمير على هؤلاء الطلاب نفقة مستديمة من بيت المال ، تسهيلات لهم وتيسيراً عليهم ، حتى يقبل غيرهم على الدرعية ثم يكونوا في النهاية رسل المبادئ الجديدة في ربوعهم وقراهم . وما لبثت هذه المدارس

(١) ابن بشر ج ١ ص ١٢ .

(٢) مجموعة التوحيد : من الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى الشيخ عبد الله الاحسانى

الصغيرة أن أصبحت مقصد الطلاب من سائر أنحاء جزيرة العرب حتى ليحصى ابن بشر عددهم بعشرة آلاف^(١) . وكان التعليم بالبحان بل كان للأذكياء جوائز من مال وكساء .

لم تكن مهمة الشيخ في الدرعية مقصورة على التعليم فقط ، بل كان مستشاراً لمحمد بن سعود ثم لابنه عبد العزيز ، وكان في الوقت نفسه قاضياً للدرعية . ومديراً لشؤونها العلمية والدينية ومستشاراً لبيت المال في توزيع الأعطية والمربيات من ضرائب الأخماس والزكاة ، إذ كانت الأموال ترد إلى الدرعية فيقوم الشيخ بترتيب الدخل والمنصرف وتوزيع مزاينة الدولة بما يراه موافقاً للأحكام الشرعية وإنشاء الدولة السعودية الناشئة . وظل قابضاً على زمام الأمور حتى نجح عبد العزيز في الاستيلاء على الرياض ، وانقادت له نجد كلها ، فاعتزل الشيخ السياسة وعكف على نشر مبادئه في جميع أنحاء الجزيرة العربية إذ كان جميع الأمراء المجاورين عندما تعاهد مع ابن سعود معادين لدعوته ، وكذلك كان العلماء من أهل الشيعة والسنة ، فقد رموه بالكفر والزندقة ، وعدوه خارجياً رافضياً ، وأوغروا عليه صدور العامة . أما هو فلم يلب ولم يتزعزع أمام هذه العواصف بل بقى صامداً في وجه أعدائه واثقاً بالله وبقوة ابن سعود .

وكان يعلم كنه الدعاية التي يقوم بها خصومه خارج نجد ولا سيما في الحجاز ، فكتب إلى علماء مكة رسالة طويلة جاء فيها « نحن والله الحمد متبعون لا مبتدعون على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، أمرنا الناس بإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ... فأشاعوا أنا نسب الصالحين ، وأنا لسنا على جادة العلماء ، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب ، وأشاعوا عنا أموراً يستحق العاقل من ذكرها ، وأنا أخبركم بما نحن عليه ليتبين الأمر لكم وتعلموا الحقيقة »^(٢) .

(١) ابن بشر ، عنوان الجند في تاريخ نجد ج ١ ص ١٧ .

(٢) من الشيخ محمد بن عبد الوهاب « إلى العلماء الاعلام في بلد الله الحرام » من مجموعة التوحيد طبع دلهي .

وكانت الدرعية خير مركز تنشأ فيه الحركة الوهابية حتى تتسع وتشيع ،
وخصوصاً أنها تمتاز على جاراتها بوقوعها في منخفض قدره خمسة فراسخ
من الغرب إلى الشرق بطوقه جبل طويق وفروعه وليس لهذا المنخفض
غير طريقين ضيقين لا يسع الغربي منهما مرور أكثر من جمل واحد ، فهى
قلعة حصينة بطبيعتها ، وهى حصينة بنهر الباطن الذى يجرى شتاء فيخصب
وادى حنيقة وينبت القماكة والقمح والشعير والذرة وهى خيرات
تساعدنا على احتمال حصار طويل ^(١) .

وأصبحت الدرعية بفضلها أكبر مدينة فى بلاد العرب ، يؤمها الطلاب
من اليمن وعمان وحضرموت والحجاز والعراق والشام ، وقدر رأى ابن بشر
الدرعية فى هذا العهد وقال فى وصفها نظرت إلى موسمها وأنا فى مكان
مرتفع ، وهو فى الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربية التى
لآل سعود ، المعروفة بالطريف ، وبين منازلها الشرقية المعروفة بالبحيرى
التي فيها أبناء الشيخ ^(٢) ، ورأيت موسم الرجال فى جانب ، وموسم النساء
فى جانب آخر ، وما فيهما من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام ،
وكثرة ما يتعاطون من البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وهو مد البصر
لا تسمع فيه إلا كدوى النحل الأصوات والدكاكين إلى جانبيه الشرقى
والغربى . وفيها من الثياب والقماش والألبسة والسلاح مالا يوصف) .

ولم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبد الرهاب ومبادئه جديدة على الإسلام
فهو يتفق مع الإمام أحمد بن حنبل ومع ابن تيمية فى رجوعهم جميعاً إلى
المصدر الأعلى لتلك المبادئ ، وهو القرآن الكريم ، ويتلاقى الجميع أيضاً
فى نظرهم إلى السنة فأبن حنبل لا يقبل من الأحاديث إلا ما أجمع عليه الأئمة

(١) محمد أحمد حسونة - أصل الوهابيين وهى محاضرة ألقاها بقاعة الجمعية الجغرافية
فى ٢٢ مارس سنة ١٩٣٢ .

(٢) أبناءه حسين الذى تولى القضاء بعد أبيه فى الدرعية ، عبد الرحمن تعلم فى الأزهر
بمصر ودرس به بعد ذلك فى رواق الحنابلة ، عبد الله له مؤلفات كثيرة تولى القضاء بعد
أخيه حسين ، على الذى برع فى التفسير والحديث والفقه ، وقد رفض أن يتولى منصبه
القضاء ، إبراهيم كان ملماً وأستاذا لابن بشر .

وهي نفس القاعدة التي وضحها ابن عبد الوهاب في قوله « الحق والصواب ما جاءت به السنة والكتاب والسنة في عرف العلماء المتأخرين هي السليمة من الشبهات »^(١) أما ابن تيمية فقد قام في أواخر القرن السابع الهجري يدعو لمبادئ ابن حنبل ، وينشر مذهبه ، ويبين أن مذاهب الأئمة كلها لا تختلف في الحق بعضها عن بعض ، وقد ألف الرسائل في الحديث والعبادات وزيارة القبور ، والواقع أن محمد بن عبد الوهاب ما هو إلا تلميذ لابن حنبل وابن تيمية قرأ لهما كثيراً فتشيع بآرائهما ودعا إليهما ، ولكن في صورة عفيفة ، زاد من عنفها شدة حنقه على البدع والخرافات التي انتشرت في جزيرة العرب في عهده . وقيام أعرام آل سعود حاملين السيف للدعوة لمبادئه بالقوة والعنف . أما هو فيعترف بأنه مدين بمعتقداته لابن حنبل أما رأيه في ابن تيمية فيتلخص في قوله عنه في إحدى رسائله « لست أعلم أحداً يجاري ابن تيمية في علم الحديث والتفسير بعد الإمام أحمد بن حنبل » ولعل ما بين ابن تيمية وابن عبد الوهاب من تشابه فيما لقياه من قومهما من اضطهاد وعنت ، قد قرب ابن تيمية إلى نفس ابن عبد الوهاب ، فقد ظهر الأول في ذلك العصر المضطرب ، عصر الحروب الصليبية في عنفوانها ، والغارات التتريّة في عنفوانها فلقيته المحن منذ طفولته ، وقد كان أبوه من كبار الخنابلة وأئمتهم ، وكذلك كان أبو الزعيم الوهابي ، فشب كل منهما بمنزل قوة نزعات الخنابلة في التشدد في أمر البدع ، وقد كان ابن تيمية أيضاً يحارب البدع التي غيرت الإسلام في عقائده وأحكامه عن حقيقته الأولى ، ويحارب أيضاً آثار الفلسفة في الإسلام^(٢) . وكذلك كان الوهابيون يتلقون المؤلفات التي يعتقدون أنها تروّع الناس في الشرك ، فكانوا أعداء علم المنطق وخصوصاً كتبه القديمة الممزوجة بالفلسفة اليونانية^(٣) .

(١) محمد بن عبد الوهاب كشف الشبهات (نقله ابن غثام في كتابه الفصل الثاني ص ٢٠) .

(٢) مصطفى عبد الرازق - الجانب الفلسفي لابن تيمية (نشرته مجلة الحديث ص ٧٠٨ - ٧١٥ عند ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩) .

(٣) سليمان بن سحمان النجدي - الهدية السنية والحنفية الوهابية النجدية - الطبعة الأولى ص ٤٥ .

وأخيراً يتلاقيان فيما كان كل منهما يبذله من الجهد في محاربة زيارة قبر النبي أو قبور الأولياء ، فقد كان ابن تيمية يعتقد أن شد الرحال إلى قبر النبي معصية . وكذلك قال ابن عبد الوهاب لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه ^(١) ، ولكن الوهابيين كانوا حريصين على ألا يفهم أحد أنهم يقلدون ابن تيمية أو ابن القيم وفي هذا يقول عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : إن الإمام بن القيم وشيخه ابن تيمية إماما حق من أهل السنة وكتبهم عندنا من أعز الكتب ، إلا أنا غير مقلدين لهم في كل مسألة ، فإن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم مخالفتنا لهما في عدة مسائل منها طلاق الثلاث بلفظ واحد في مجلس ، فإننا نقول به تبعاً للأئمة الأربعة ، ونرى الوقف صحيحاً والنذر جائزاً ويجب الوفاء به في غير المعصية ^(٢) .

ونستطيع بعد ذلك أن نستعرض أهم المبادئ الوهابية على ضوء رسائل ابن عبد الوهاب وكتبه إلى أمراء البلاد ومشايخ القبائل وعلماء الإسلام والمؤلفات التي كتبها أبنائه وتلاميذه الذين درسوا عليه وفهموا دعوته ، وما كتبه ملوك الدولة السعودية من الرسائل والكتب ، وما ألفه الرحالة الأجانب الذين زاروا جزيرة العرب . إبان اشتداد الدعوة الوهابية .

كان أول مادعا إليه ابن عبد الوهاب منع دعوة الأموات والاستغاثة بهم ، فهو يشدد في النهي عن دعاء غير الله حتى ليعتبر من يدعو غير الله زائفاً عن الدين ، خارجاً على أصول دعوة القرآن والسنة ، ويعزز حكمه عليهم بالآيات والأحاديث كقوله تعالى (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) وقوله (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) وفي الحديث (وإذا سألت فاسأل الله) وعند الوهابيين « إن من حرف شيئاً من العبادة لغير الله فقد اتخذ إلهاً آخر

(١) عبد الله بن محمد عبد الوهاب ، رسالة كتبها بعد دخول الوهابيين مكة سنة ١٢١٨ هـ طبعها مطبعة المنار سنة ١٢٤٢ هـ .
(٢) سليمان بن سحمان ص ٥٢ .

فلا يجب إذن أن يدعى إلا الله وحده ، فمن دعا غير الله واستغاث بغيره في كشف الشدائد وتجنب الفوائد فقد أشرك بالله ، والله لا يغفر للشرك . فجميع الأنبياء والأولياء لا يجعلون وسائل ولا وسائط بين الله والخلق في جلب الخير أو دفع الشر ، ولا يجعل الله لهم من حقه شيئاً ، لأن حقه تعالى غير جنس حقهم ، فحق النبي وحق الأولياء محبتهم والترضى عنهم والإيمان بكراماتهم وليس دعاؤهم ليجلبوا خيراً لا يقدر على جلبه إلا الله ، أو ليدفعوا سوءاً لا يقدر على دفعه إلا الله ^(١) .

فالتوحيد في رأى ابن عبد الوهاب هو الإخلاص لعبادة الله وحده فقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى قوم يتعبدون ويتصدقون ويحجون ويذكرون الله ، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله ، يقولون نريد منهم التقرب إلى الله وشفاعتهم عنده ، فبعث الله محمداً يحدد لهم دين أبيهم إبراهيم ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد بعض حق الله لا يصلح منه شيء لا لشيء مرسل ولا لشيء مقرب ^(٢) .

وهكذا يكفر الوهابيون كل من دعا غير الله أو سأل ميتاً واستغاث به في قضاء حاجاته أو تفرج كربته ، وكذلك من ذبح القرбан لغير الله أو سجد له أو خافه خوف السراء أو اتكل عليه أو عبده ، ولا يكتفى الوهابيون بتكفير هؤلاء فقط بل يأخذون على عاتقهم قتلهم حتى لا تكون فتنة ^(٣) . ولا يفرق الوهابيون بين من يعبد الأصنام ومن يتوسل بقبور الأنبياء والصالحين بل كان ابن عبد الوهاب يتهم أعداءه بأن شركهم أشد من شرك الكفار ، لأن المشركين الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء أو ثنائاً مع الله إلا في وقت الرخاء وأما في وقت الشدة فيخلصون لله وحده

(١) عبد العزيز بن سعود . رسالة كتبها بعنوان (من عبد العزيز بن محمد بن سعود) إلى من يراه من العلماء والقضاة في الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء الشرق والغرب) .

(٢) محمد بن عبد الوهاب . كتاب كشف الشبهات نقله ابن غنام في كتابه ص ٢٤ .

(٣) سعود بن عبد العزيز ، كتابه إلى حاكم الشام يوسف باشا سنة ١٢٢٥ هـ نقله من تاريخ جودت الجزء التاسع ص ٣٦٢ - ٣٦٤ ، مطبعة دار الطباعة باستانبول سنة ١٢٩٢ هـ .

كما قال تعالى : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » وقوله : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه » وقوله : « وإذا غشيهم موج كالكلال دعوا الله مخلصين له الدين » .

فمن دعا نبياً أو ولياً أو غيرهما وسأله قضاء حاجاته كان كافراً حلال الدم والمال ويستشهد ابن عبد الوهاب على صحة رأيه بأن أحداً من أصحاب النبي لم يفكر في أن يأتي إلى قبره ليسأله ويستغيث به ، فقد نهى النبي عن ذلك في قوله : « لا تتخذوا قبوري عيداً ولا بيوتكم قبوراً » ، وأن تسابحكم ببلغني أينما كنتم ، وكان عبد العزيز بن سعود يخشى أن يستغل المعارضون رأى الوهابيين فيرموهم بأنهم ينتقدون زيارة النبي فقال في إحدى رسائله : « إن زيارة قبر النبي مشروعة بشرط عدم فعل محظور عند القبر ، وألا يتخذ القبر مكاناً للصلاة لأن النبي نفسه لعن الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد في قوله اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وعاد فاستشعر بما قاله الإمام مالك (لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو ، بل يسلم ويمضي ^(١) .

يختلف محمد بن عبد الوهاب مع معارضيه أيضاً في مسألة الشفاعة فعنده أن الإنسان إذا مات موحداً استشفع الله فيه نبيه ، فيجب أن يدعو الإنسان الله أن يشفع فيه النبي . فثار عليه الناس وقالوا هذا منطوق مقولوب . فرد عليهم يقول (أنا لا أنكر الرسول ولا أتبرأ منه بل هو الشافع المشفع وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى : « قل لله الشفاعة جميعاً » ولا تكون إلا منه بعد إذنه كما قال : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ، فالنبي لا يشفع في أحد حتى يأذن الله فيه .

(١) أحمد بن ناصر عثمان النجدي ، الفتاوى العذابة في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب (وهو الذي أرسله عبد العزيز بن سعود إلى مكة سنة ١٢١١ هـ بناء على طلبه شريف مكة لينظر علماء الحرم الشريف)

وقد قال أيضاً ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهو لا يرضى إلا التوحيد فإذا كانت الشفاعة كلها لله . ولا تكون إلا بعد إذنه ، ولا يشفع النبي في أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن بالشفاعة إلا لأهل التوحيد تبين أن الشفاعة كلها لله .

ويرد الشيخ على من يقول أن الله أعطى الشفاعة لمحمد ونحن نطلبها منه قائلاً : أن الله أعطاه الشفاعة ، وهما أنا عن طلبها منه عندما قال تعالى : ولا تدع مع الله أحداً^(١) . ويشدد الجدل بينه وبين معارضيه فيعترضون عليه بأن شرك عبادة الأصنام ؟ فيرد عليهم قائلاً : وما عبادة الأصنام ؟ أتظنون بأن عباد الأصنام كانوا يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها . إنما كان أولئك يقولون إنها تقربنا إلى الله زلفى وتدفع عنا غضب الله ببركتها ، ولا فرق بين ما يفعله عباد الأصنام ، ودؤلاء الذين يقفون عند الأحجار والبناء الذي على القبور وغير ما يفعلهم هو عبادة الأصنام تلك هي وجهة نظر الشيخ محمد عبد الوهاب ، في تفكير أولئك المتوسلين بقبور الأولياء والصالحين .

فالتوحيد عنده لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فإن اختلف شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ، فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه فهو منافق ، وهو في نظره شر من الكافر الخالص^(٢) .

فالوهابيون يقولون إن الفرق بيننا وبين أعدائنا في مسألة الشفاعة أننا نقول : اللهم شفّع نبينا محمداً فينا يوم القيامة ، أو اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين ، أما أعداؤنا فيقولون : يا رسول الله أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركني أو أغني أو أشفني أو انصرني على عدوي ، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه غير الله ، وذلك شرك أكبر ، قاتل عليه رسول الله .

(١) مجموعة التوحيد ص ٤٦ طبعة دلهي .

(٢) ابن غنام ص ٢٧ .

أما التوسل كأن يقول القائل اللهم إني أتوسل إليك بحاجه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، أو بحق عبدك فلان ... الخ ، فهذه بدعة مذمومة ، ويتفق محمد بن عبد الوهاب مع ابن تيمية في تقسيم التوسل إلى ثلاث درجات :

الأولى - أن يأتي المرء الى قبر نبي أو ولي أو ما يعتقد أنه قبر نبي أو رجل صالح ويسأله حاجته في ما لا يقدر عليه إلا الله ^(١) ، فهذا شرك صحيح يجب أن يستتاب صاحبه ، فإن تاب كان بها وإلا قتل .

الثانية - أن يطلب المرء من النبي أو أولى أو الشيخ الصالح أن يدعو له كأن يقول : ادع لي كما كان الصحابة يطلبون من النبي الدعاء ، هذا مشروع في الحى لا في الميت من الانبياء والصالحين .

الثالثة - أن يقول المرء : اللهم بحاجه فلان عبدك أو ببركة فلان أسألك كذا وكذا ، وهذه أخف الدرجات .

تلك هي درجات التوسل الثلاث ، الأولى منها هي الشرك الصحيح فيحل ابن تيمية وابن عبد الوهاب قتل صاحبه ان لم يتب ، أما الدرجتان الاخريان فلا يجوز قتل من عد توسله منهما .

وعندما قامت الدولة السعودية الأولى تدعو للبداية الجديدة ، كان أمرؤها حريصين على أن يدينوا للمسلمين في مختلف أقطار الأرض أسس دعوتهم .

وقد لخص سعود الكبير مبادئ الوهابيين فيما أرسله إلى يوسف باشا حاكم الشام ، قال ^(٢) « يقيننا الذي نحن عليه ، وندعو الناس إليه ، هو الإخلاص لعبادة الله وحده ، فلا تذبح قربان إلا لله ، ولا ترجو إلا هو ولا تخاف إلا منه ولا تتوكل إلا عليه ، وأتينا تتبع الرسول صلى

(١) ذكر ابن تيمية أن شفاء الامراض والنصر على الاعداء وغفران الذنوب وتعلم القرآن واصلاح القلوب ، كلها من الامور التي لا يجوز ان يطلب من غير الله .

(٢) تاريخ احمد جودت ، الجزء التاسع ص ٢٦٢ - ٢٦٤ ، مطبعة استنبول سنة ١٢٩٢ هـ باللغة التركية .

الله عليه وسلم ، وتوجب طاعته على جميع المكلفين ، ونستن بسنته ، ونهتدى بهداية الله . ولا نعبد إلا الله ولا نتقرب إلا إليه فمن دعا غير الله واستغاث بغيره في كشف الشدائد وجلب الفوائد فقد أشرك بالله ، والله لا يغفر المشرك وأول ما ندعو الناس إليه أن من استغاث بالله وحده وأخلص له العبادة ، وعمل ما فرض عليه فهو أخونا المسلم ، له ما لنا ، وعليه ما علينا ، ومن لم يمنع ذلك بل أقام على شركه كفرناه وقتلناه كما أمرنا الله بذلك ، ونهى عن المنكر من الزنا والسرقة وشرب الخمر والحشيشة وما يشاكلها ، وأكل أموال الناس بالباطل ونأخذ الحق من القوى للضعيف وننصف المظلوم من الظالم ، ونهى عن سائر المنكرات ونزيل البدع السيئات المحدثات ومن لم يفعل ذلك لم يعصم دمه وماله ، ومن فعل ذلك فهو مسلم لله ، له ما للمسلمين .

أما البدع السيئات التي يشير إليها سعود الكبير فهي إقامة المزارات ، ونصب القباب على القبور ، والأدعية الفاسدة . والأذكار التي لم ترد عن صاحب الشريعة ، ويؤكد الوهابيون أن النبي نفسه نهى عن البناء على القبور بدليل ما رواه مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال علي ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا أدع تمثالا إلا طعسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته . . .

وأنه نهى أيضا عن أن يخصص القبر أو يكتب عليه ، وأنه لعن من أسرج بها المصابيح أو القناديل حيث قال (لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) وأنه ندد بأولئك الذين يذهبون إلى قبور الأنبياء والأولياء فيستغيثون بهم ويسجدون عند قبورهم وينذرون لهم في قرله صلى الله عليه وسلم (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فالوهابيون إذن لا يدعون في هذا إلى مبادئ جديدة على الإسلام ولكنهم يدعون إلى الإصلاح والعودة إلى القرآن في نقائه لكنهم يبالغون في معارضة كل ما يعتقدون أنه

بدعة مكروهه ، كالتزين بالحلى والجواهر ، وشرب الدخان وما يشبهه .

لم تكن الحركة التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب ديناً جديداً كما ظن بعض المؤرخين الأوربيين ، ولم تكن مذهباً جديداً فى الإسلام كما ظن الأتراك وشاع بين المسلمين من الحجاج ، ولكن تنلخص تلك الحركة فى أن محمد بن عبد الوهاب كان رجلاً من رجال الإصلاح الدينى ، وجه جموده لإصلاح ما أفسده الجهل فى الجزيرة العربية وتقويم ما أعوج من سلوك العرب فى نجد ونشر المبادئ الإسلامية فى نقائها وبساطتها .

ولكن أغلب الناس أساءوا فهم ابن عبد الوهاب كما يحدث دائماً لكل مصلح دينى أو اجتماعى . أساء فهمه أصدقاؤه وأعداؤه على السواء فإن أغلب أتباعه تغالوا أشد المغالاة فى تكفير المسلمين ففهم فئة كبيرة من البدو الذين اعتمدوا مبادئ ابن عبد الوهاب ، كانوا لا يفهمون الإسلام على حقيقته ، ومن ثم لم يدركوا دعوة الشيخ على حقيقتها واعتقدوا أن الإنحراف القليل عن تعليماته وآرائه ، كفر وزندقة ، وبذلك أصبح أغلب المسلمين ممن يخالفونهم كفاراً يحق قتلهم .

أما أعداؤه فقد ظنوا أنه أتى بمذهب جديد فى الإسلام ، يقلل من واجب التقديس والنبيل نحو النبی صلى الله عليه وسلم ، ولذلك أعتقد هؤلاء بدورهم أن الشيخ مبتدع ، وأن أفعاره كفار .

وقد ازداد هذا الاعتقاد رسوخاً بسبب الدعاية التى كان ينشرها الشريف غالب أمير مكة بين الحجاج وأمراء الحج ضد تلك الحركة ، وما كان يذيعه الحجاج أنفسهم عند عودتهم إلى وطنهم من إشاعات وأنباء مثيرة بعثت الهلع فى نفوس الراغبين فى الحج .

وقد اعتاد الولاة العثمانيون فى بغداد ودمشق والقاهرة أن يبالغوا فى وصف سوء المعاملة التى يلقاها الحجاج من الوهابيين ، والأخطار التى تتعرض

لها قوافل الحجاج ، وذلك لكي يبرروا موقفهم إذا فشل جنودهم المرافقون للمجاهل في حماية الحجاج من قطاع الطرق ، بل إن من هؤلاء الولاة من كان يتمنى عدم سفر المحمل الذي كان يكلفهم كثيراً من النفقات^(١) لذلك كله أعتقد المسلمون في أنحاء الشرق أن الحركة الوهابية قد جاءت بتعاليم جديدة تخالف أحكام الإسلام .

إن من يدرس تاريخ نجد بخاصة وتاريخ بلاد العرب بعامة قبل ظهور الحركة الإصلاحية الكبيرة ، ليجد أن حالة هذه البلاد كانت تستدعي قيام نهضة إصلاحية واسعة النطاق ، تجتث جذور الفتن والخرافات التي شاعت في الجزيرة العربية وإذا كان الوهابيون قد حملوا مخالفهم على قبول آرائهم بالسيف والنار ، وأكروههم بالقتال على الدخول تحت رايتهم وطاعتهم ، فما ذلك إلا لأنه لا سبيل إلى إصلاح هؤلاء القوم إلا بالقوة والجبروت ، فقد كان العرب في ذلك العصر في حالة من التأخر والجهل والفوضى يصعب معها النفاذ بالحجة والاقناع ، وكانت نجد على وجه الخصوص في عزلة عن العالم ، والعالم في عزلة عنها ، فما كانت سوى قسم قاحل من بلاد العرب المجذبة ، وما كان أهلها سوى أعراب وزراة يجملون طرق المعيشة الصحيحة كل الجهل ، ولا يعرفون أصول الدين الصحيح ، آمنوا بالخرافات البدع ، وبعثوا بالإسلام عن تعاليمه الأولى ومبادئه السامية . وارتكبوا ما أشرنا إليه مما ثارت له نفس محمد بن عبد الوهاب من تعظيم الأحجار والأشجار والقبور وأصحاب القبور ، فكانت عقلية المسلمين هناك عقلية عجيبة ضيقة ، فقصور الأولياء والصالحين تمتلئ بزائريها ، يذرفون فوق ترابها دموع الدم والاستغفار ، متوسلين بأصحابها ، راجين منهم العفو والغفران والشفاعة ، مريقين دماء الهدايا والقرابين ، مقدمين النذور المختلفة ، وكانت بعض المخلوقات الخافية العارية يتخذها الناس أولياء الله المقربين ، يعلمون الغيب ، ويمسكون الحياة والموت ، فلم يكن أمام السموديين إلا دعوة هؤلاء إلى الرجوع إلى

(1) Burckhardt's Notes, P. 276.

القرآن الكريم وتنقية الدين من مثل هذه الأدران والخزعبلات ، ولكنهم كانوا يدركون أنهم ان يستطيعوا أن يغيروا ما بهؤلاء القوم بالوعظ وإقامة البرهان فحسب ، بل لابد من تحكيم السيف أيضا ان عز الاقتناع ، ولم تنفع الحجة . لذلك كانت رسائلهم الى القبائل تسبق جيوشهم تقول : القرآن في يد والسيف في الأخرى ، ^(١)

وهكذا أخذت الدعوة تزحف من الدرعية ، نحو بلاد نجد الأخرى ، حتى إذا نجحت في نجد نجاحا كبيرا ، خرجت من هناك قوية معتدة بنفسها نحو العراق والحجاز ، ثم رنت بعد ذلك نحو التوسع والامتداد فطمعت في الشام وأغلب الظن أنه لولا أن المصريين والأتراك اجتمعوا على حرب هذه الدعوة وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لادل نجد بها ، لكان من المرجو أن توحد هذه الدعوة كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة كما وحد ظهور الاسلام كلمتهم في القرن الأول .

وقد أفادت نجد من هذه الثورة الدينية القوية ، فأصبح لها شأن يذكر ، وتاريخ يدرس ، وهناك ظاهرة يلحظها المؤرخون حتى النجديون منهم ، أن بلاد نجد منذ أن قبلت الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا الى عهد هذه الدعوة لم يظهر فيها عالم واحد من العلماء المنتجين ، فقد كانت طوال هذه القرون تعيش عبثة الأعراب والزراع والرعاة وما كان الخلفاء ولا الأمراء يهبونها شيئا من عنايتهم ، وذلك لجذب بلادهم وفقرها الطبيعي ، ولم يظهر من بينهم طوال هذه القرون زعيم يجتمعون حوله فيسمو بهم الى مصاف الشعوب الحية ، فلما قامت الحركة الوهابية أحدثت ثورة عنيفة في أفكار النجديين ، وبعثت بلاد العرب عامة من مرقدنا وأطلقت الأذهان من عقالها . فكثرت المؤلفون والمنتجون ، وأصبحت الدرعية كما وصفناها منبع الحركة الإصلاحية الجديدة .

(1) Jean Raymond : P. 7.